عذرية

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ عبد المغنى على حسين

فى أحد الأحياء المترفة بمدينة القاهرة ، وفى طريق أقفرت من المارة فى ليلة من ليالى الشتاء ، مشت آنسة نحيفة العود ، شاحبة اللون ، تلبس على عينيها عوينات وتحمل بيمينها حقيبة ثياب ، يبدو عليها الإعياء الشديد ، وتنظر أمامها فى شبه ذهول

ووقفت الآنسة فجأة والتفتت نحو مبنى أنيق من طابقين ومشت إلى باب سوره بخطى وئيدة ومدت يداً نحيلة فعالجت الباب الحديدى فطاوعها وانفتح ، وأسفر عن روضة بديعة التنسيق . مشت الآنسة إلى درج من الرخام الأملس ، على جانبيه صفان من أصص الرياحين . وتوقفت حائرة وهمت أن تعود ثم عدلت ، ومضت ترقى الدرج فى بطء شديد كأنما تجر بقدميها طنّ حديد ، ووقفت أمام باب فخم عريض قدّ من أثمن البلور وازدان بإطارات نحيلة . ومدت يداً مرتجفة إلى ضاغطة عاجية فمستها فأزّ الجرس وتلا الأزيز وقع أقدام خفيفة ، ثم انفتح الباب وأطل منه خادم نوبى فى قفطانه الناصع ، وحزامه القانى ، وخفه المقوف

تفرس الخادم فى الطارقة المجهولة ووقف برهة صامتاً وأرتج على الآنسة فوقفت هى أيضاً صامتة ثم تملكت نفسها وقالت :

— هل السيدة موجودة ؟

الخادم — أية سيدة ؟

الآنسة — ...

الخادم — من حضرتك ؟

الآنسة — ...

فتردد الرجل برهة ثم تركها وخف إلى الداخل فغاب حيناً ثم عاد فدعاها إلى الدخول . ومشى أمامها على طنفسة بنفسجية فى ردهة صقيلة تكاد حوائطها تضئ ولو لم يشعها مصباح ، وأدخلها حجرة رحيبة يشيع فيها ضياء هادئ وردى اللون جميل ، وجلست الآنسة فغاصت فى مخمل وحرير

وخرج الخادم موصداً الباب وراءه . وبعد حين سمعت الآنسة وقع أقدام مسرعة ، وفتح الخادم الباب إلى أقصى اتساعه ووقف ممسكا به فى احترام . وخطرت إلى الحجرة ربة القصر ، سيدة تصف فى العمر ، قد ضمت الحسن من أطرافه مجلوبه وغير مجلوبه ، جمعت الأنوثة الكاملة الناضجة والعقل الراجح المثقف ، فى عينيها سيال حنان ، وفى فمها كثر محبة ، يتقدمها أريج كأنه نفح من جنات الخلود

جلست السيدة والآنسة متقابلتين . قالت السيدة بعد سكوت : « خيراً يا عزيزتى ؟ ! » قالت الآنسة فى تكرار وعثار « علمت أنكم . . . ياسيدتى . . . بحاجة إلى فتاة متعلمة لتربية الأطفال ... فجئت ... أطلب الخدمة ... فنظرت إليها السيدة فى دهشة وقالت : « من أنبأك هذا ؟ ! » قالت الآنسة فى ارتباك ظاهر : « ... عرفته ... »

كان للسيدة أطفال قامت على تربيتهم إلى اليوم بنفسها دون استعانة بمربيات ، فقد ارتأت ألا تعهد

إلى غيرها تأول واجباتها وأسمى وظائفها . ولكن بحدث أن دعيت للاشتراك في جمعيات نسوية فلبت داعي الجهاد في ميدان النفع العام . ولم يكن ذلك في البدء ليشغلها عن أطفالها ، أو يستنفد من وقتها إلا يسيراً . ولكن نشاطها الاجتماعي نما وتشعب ، وصار يشغل من وقتها بضع ساعات في أكثر الأيام تضطر فيها إلى ترك بنيها في رعاية خادمات جاهلات . لذلك رغبت في استخدام مربية متعلمة تنتقيها بعناية وتشرف على عملها ما استطاعت .

أما موضع الدهشة فهو أن هذه الرغبة لم تخطر ببالها إلا يوم أمس ، ولا يعلم بها أحد سوى قرينها الذي لم تفاتحه فيها إلا ليلة أمس ، ولم يتفقا بعد على التنفيذ . فمن أين جاء الفتاة علمها ؟!! كررت السيدة على الآنسة السؤال ، ولجت الآنسة في الارتباك .

قالت السيدة : « اسمحي لي ... برهة ... » ثم غادرت الحجرة ، ودخلت على قرينها في حجرة مكتبه ، وهو مكب على أوراق يستعرضها ، فقد كان مديراً لشركة هندسية وزعيماً اقتصادياً كبيراً .

قالت : « عزيزي ! ... هل أعلنت عن حاجتنا إلى مربيـة ؟ » قال : « لا » قالت : « ألم تخاطب أحداً في هذا الشأن ؟ » قال : «لا» قالت : « شيء غريب ! ! » قال : « ماذا ؟ ! ! » فروت له حديث الفتاة .

فتبسم البك وقال : « لا بد أنك حادثت أحداً في هذا الأمر ولا تذكرين » فهزت رأسها بالنفي المؤكد ، وكان البك يعرف أن قرينته تعني دائماً ما تقول .

قال البك : « لعل الآنسة طرقت بابنا مصادفة للسؤال عن عمل » قالت : « إنها لم تسأل . . . بل تقول إنها تعرف ...!! » قال البك : « أدخلي علي هذه الزائرة إذا سمحت » فأرسلت في استدعائها . وأقبلت الفتاة وجلة صفراء ، فحياها البك متلطفاً ودعاها للجلوس . ثم قال بصوته الجهوري : «من قال لك أننا بحاجة إلى مربية ؟ » قالت الآنسة : « هذا يا سيدي يحتاج إلى شرح ، وأنا متعبة جداً الآن ، وستعرفون ذلك مني بعد استخدامي » فنظر إليها البك بارتياب . قال : « أتعرفين أحداً من خدم هذا المنزل ؟ » قالت : « لا » فنظر إليها بارتياب أشد . وسكت قليلاً ثم قال : «هل سبق أن اشتغلت مربية؟» قالت : «لا» قال : «أتعرفين أحداً يمكن أن يعرفك إلينا ؟ » قالت : « لا » قال : « اسمعي يا آنسة ! لا يمكننا أن نستخدم شخصاً لا نعرفه ، ولم يقدمه إلينا شخص معروف أو جهة معروفة .. متأسف ! . » ودار بكرسيه ليواجه أوراقه

فنهضت الفتاة واقفة ، واغرورقت عيناها ، وعمت نحو الباب . ثم توقفت وقالت : « أيمكنني يا سادتي أن أبيت هنا الليلة ؟ » . فنظر البك محرجاً ثم قال : « أليس لك مسكن ؟ » . قالت : « لقد طردني أخي » وأجهشت بالبكاء . قال البك : « من هو أخوك ؟ » فلم تجب . قال : « أليس معك نقود ؟ » فلم تجب . فأخرج من جيبه نقوداً ومد يده قائلا : « خذي هذه واقضي الليلة في فندق ... و ... تعالي إلي في الغد ، وأنا أنظر في أمرك » . فأبت الفتاة أن تأخذ النقود وغادرت الحجرة

عندئذ نادت سيدة الدار قائلة : « إدريس ؟ » ، فجاء الخادم النوبي . قالت : « لا تدع الزائرة تخرج ... أدخلها حجرة الاستقبال ... أغلق الباب » . ثم التفتت إلى قرينها وقالت : « ماهذه القسوة يا عزيزي!

فتاة ضعيفة ، نحيلة الجسم ، رقيقة الثياب ، مشردة فى هذه الليلة الباردة ، تهيب بنا أن نؤويها ، فندفع بها إلى الشارع ولدينا سعة لبيت عشر مثلها ؟! »

قال قرينها : « مهلاً يا عزيزتى ! ألا ترين فى أمر هذه الفتاة ما يدعو إلى الريبة ؟ نحن لا نعرف من أمرها شيئاً ألبتة ، وهى تأبى أن تقول أى شىء عن أمرها ، وكل احتمال بشأنها جائز عندى . وحتى لو صدق ما قالت من أن أخاها طردها فأكبر الظن أنها أتت أمراً إداً حمل أخاها على طردها فى هذه الساعة من الليل »

قالت : « قد يكون شىء من ذلك . ولكن ألا يجوز أن الفتاة سليمة النية ؟ »

قال : « هذا جائز أيضاً . ولذا قدمت إليها نقوداً لتأوى إلى فندق ، ودعوتها للعود فى الغد لأتعرف أمرها فى فسحة النهار » . قالت : « قلبى يحدثنى أن هذه الفتاة تستأهل العطف . إن لى حاسة سادسة تمكننى من الحكم على الأشخاص حكماً صحيحاً دون استدلال منطقى » . فتبسم البك وقال : « أنا يا عزيزتى لا أعرف شيئاً عن هذه الحاسة السادسة ، وليس لى إلا خمس حواس فقط بعضها فى غاية البلادة وليس لعاجز مثلى إلا التعويل على المنطق والمعقول . أنا لا أرتاح مطلقاً لمبيت هذه الفتاة هنا الليلة »

وفى هذه اللحظة انبعث من الردهة صوت رنين ثم طرق باب الحجرة بلهفة ، وفتحه الخادم إدريس قبل أن يؤذن له ، وصاح : « النجدة يا سيدتى ... ! الزائرة سقطت فى الردهة مغشيًّا عليها »

فنهض السيدان وخفا إلى الردهة . ومشى إدريس فى إثرهما يقول : « دعوتها إلى حجرة الاستقبال فأبت ، وظلت واقفة ، ثم سقطت هكذا »

جثت السيدة بجوار الآنسة تقلب فيها وتجس نبضها ، ووقف البك لا يفعل شيئاً . بل لقد خطر له أن الأمر كله رواية مدبرة وهذا فصل منها . قال إدريس : هل أدعو الإسعاف يا سيدى الباشا ؟ » . و (الباشا) هو اللقب الذى اعتاد إدريس أن يمنحه لسيده . فلم يجبه سيده بشىء ، وأشارت إليه سيدته أن احملها ، ونقلوها إلى حجرة نوم ، وطفقت السيدة تسعفها بما فى مقدورها دون أن تفيق

قال إدريس : « هل أدعو الإسعاف يا سيدتى الهانم » . قالت سيدته : « لا ... بل استدع الدكتور فلان ... بالتليفون ... أسرع ... »

وحضر الطبيب ، فلما فحص المريضة هز رأسه فى يأس ، ثم طفق يعالجها بالحقن والأشربة المقوية والمنبهات والتدليك وقتاً طويلاً دون أن تفيق .

قال الطبيب : « لا أملك ياسادتى أن أمكث أكثر من ذلك ، ولكن أرى المريضة بحاجة إلى عملية فنية متواصلة مما لا يتيسر إلا فى مستشفى ، وحيث أنها زائرة مجهولة لكم فالرأى عندى أن تنقل إلى قصر العينى بواسطة الإسعاف »

فتقدم إدريس ليلتقى الأمر باستدعاء الإسعاف .

ولكن الطبيب مضى يقول « غير أنى أصارحكم القول بأن نقلها شديد الخطر على حياتها . والحل الآخر هو أن أذهب أنا ، وأبعث إليكم بممرضة مزودة بما يلزم من التعليمات والأدوية فتسهر عليها حتى الصباح » قالت السيدة : « ليكن ذلك يا دكتور » وذهب الطبيب ، وجاءت الممرضة .

وهم السيدان بالذهاب إلى الفراش فقالت الممرضة « أرجو ياسيدتى الهانم أن يكون أحد الخدم على مقربة منى طول الليل ، فقد أحتاج بعض أشياء » قالت

الهانم : إدريس ! إسهر مع السيدة إلى الصباح ، وناولها ما قد يلزم » ثم انصرفت .

ومضى إدريس مهموماً ، فجاء بكرسيه الخشبي ووضعه على باب الحجرة ، وهو يزمجر بلهجته النوبية قائلاً : « ليلة طويلة بتاعتو . چاى منين البلاوى دى »

وأصبح الصباح فبادرت ربة الدار بالسؤال عن المريضة . قالت المرضة : « إنها كما هي ، ولكنها تنبهت بضع دقائق أثناء الليل ، فأردت أن أحادثها فلم أجد ما أقول إلا السؤال عن اسمها ، فقالت إن اسمها عذرية ، وهو اسم لم أسمع به قبل اليوم ياسيدتى الهانم » .

وفى مساء ذلك اليوم اجتمع بحجرة المريضة ربا الدار ، والطبيب . قال الطبيب : « إنى متحير فى مرض هذه الآنسة ، وأرى عرضها على فلان باشا » وأسمى نطاسيا مشهوراً ، وأستاذاً كبيراً . فوافقت ربة الدار على استدعاء الباشا ، وأصرت عليه .

وجاء الباشا ، فلما فحص المريضة قال « هبوط عام ، ولكنه ليس خطيراً ، وسأصف لها دواء أعتقد أنه سيشفيها » وبينما هو يكتب الدواء رنا إلى الآنسة وقال : « لقد رأيت هذه السحنة مرة ، ولكنى لا أذكر متى ولا أين » وأتم وصف الدواء ، ثم سأل عن اسم المريضة فقالوا : « عذرية » قال رب الدار « اسم غريب ياسعادة الباشا » قال الباشا : « نعم غريب ، ولكن الأغرب منه أنى سمعته مرة ورأيت هذه السحنة مرة ، ولكنى لا أذكر متى ولا أين » وطفق يفرك جبهته مكرراً « . متى ؟! . وأين ؟! . » ثم قال « لا أذكر » ونهض مستأذناً فى الخروج .

ورجاه رب الدار أن يتناول القهوة ، وكان الخادم قادماً بها ، ثم جلسا يحتسيانها ويتحدثان فى شئون عامة .

وفجأة وضع الباشا قدحه فى الطبق قائلاً : « تذكرت ... تذكرت تماماً ... أتعرف يا سيدى البك فلاناً الأديب الشاعر الذى توفى منذ بضع سنين ؟ ... جاء إلى عيادتى ذلك الرجل الفاضل رحمة الله عليه ، منذ نحو عشرة أعوام ومعه ابنة له فى نحو الخامسة عشرة ، وقال إنها مصابة بمرض عصبى ، ففحصتها ، فلم أجد بها مرضاً عصبياً ، بل وجدت ضعفاً عاماً فقط ، وعالجتها حتى شفيت ، وكان اسم الفتاة عذرية ، وهى هذه بعينها ، فقط كانت تلبس على عينيها عوينات » فأشار رب الدار إلى عويناتها وكانت على نضد بجوار الفراش

وتعجب الجميع من هذه المصادفة

قال البك : « وما الذى حمل أباها على الظن بأن مرضها عصبى ؟ » قال الباشا : « سألته فى ذلك ، فقال إنها تذهل أحياناً ، ثم يبدو كأنما حجب الغيب تكشفت أمامها ، فتقول مثلاً : إن فلاناً قريبنا فى مكان كذا يعمل كيت وكيت ، أو ترشدنا إلى شىء نبحث عنه ، أو تنصحنا فى بعض الأمور » قال : « فطأنت الرجل وأفهمته أن مرضها قد زال ، أما هذه الحال فلا خوف منها وهى طبيعية »

قال البك مندهشاً : « . . . طبيعية ! »

قال الباشا : « نعم . هى خاصة نفسية معروفة ، تتجلى واضحة فى بعض حالات النوم المغنطيسى ، وتنشأ ذاتية عند بعض الناس ، ويمكن إرهافها بالتصوف ، وقد عرفت فى كل العصور ، وبلغت أوجها فى الأنبياء »

قال البك : « اغفر تطفلى يا باشا ولكنى بحاجة إلى زيادة إيضاح »

قال الباشا : « أنت تعرف يا سيدى البك أن ماندركه بحواسنا الخمس وبالأجهزة العلمية التى اخترعت

فى مدى قرنين أو ثلاثة ، لا يعد قطرة فى محيط هذا الوجود ، فاعلم ياسيدى أن فى الناس شواذ يستطيعون الحس ببعض ما لا ندركه بالحواس ولا بالأجهزة العلمية المعروفة حتى الآن ، كأنما وهب هؤلاء الناس حاسة سادسة أو امتداداً فى حواسهم الخمس »

قال البك : « إن قولاً كهذا من عالم كبير مثلك ياسيدى الباشا يفتح الباب واسعاً أمام الدجالين والمشعوذين » قال الباشا : « إنى أقرك على هذا مع الأسف الشديد ، فادعاء هذه الخواص للتغرير بالجمهور أمر ميسور ، والذين يرتزقون من هذا السبيل فى مجموعهم محتالون أدعياء ، ولا حيلة إلا أن يبطش بهم القانون بلا استثناء » قال البك: «ألا ترى أن الأولى إنكار هذه الخواص كلية لقطع السبيل على الدجالين ؟ » قال الباشا : « قد يكون ذلك ولكن الحقائق الثابتة لا تنكر ؛ ثم إن إنكارها لحماية الناس من الدجل قد يجر إلى ما هو شر من الدجل فهو يمهد للهزء بكرامات الأولياء واعتبارها خزعبلات ، ثم إلى إنكار النبوة نفسها واعتبارها دجلاً ، ثم إلى الإلحاد المطلق »

قال الباشا ذلك ونهض مستأذناً ، وودعه رب الدار إلى سيارته بالتجلة

تماثلت المريضة للشفاء بسرعة بفضل دواء الباشا وتولت مهمتها فى المنزل كمربية ، وأنس أهل البيت فيها الذكاء وسمو الخلق والتقوى ، فازدادوا اطمئناناً إليها يوماً بعد يوم

قال البك ذات يوم لقريبته : « ألم تر لك الآنسة شيئاً من ماضى حياتها ؟ » قالت السيدة : « لم أفاتحها فى ذلك فقد يكون فيه ما يؤلمها » فاستدعاها البك وقال : « نحن لم نعهد عليك سوءاً فما الذى أغضب أخاك عليك ؟ » فأطرقت الفتاة قائلة : « عفا الله عن أخى » ومضت تقول : « لما توفى أبواى كنت فى مرحلة التعليم الثانوى ، وكان أخى قد نال شهادة عالية وألحق بوظيفة حكومية هامة ، ولم يترك والداى أى مال ، فانقطعت عن الدرس ، وعشت من مال أخى فى منزله . ثم وسوس الشيطان لأخى فبدأ يستغل سلطة وظيفته فى الحصول على منافع مادية ، وأحسست إحساساً خفياً بأن الرزق غير نق ، وكان والدى منذ وفاته يتمثل لى فى بعض غفواتى وأشاهده مشاهدة أشد وضوحاً من مشاهدات اليقظة ، وجاءنى أبى يوماً فقال : « نبهى أخاك إلى سوء المصير الذى ينحدر إليه . إنه سيفلت من بطش القانون فى حياته الدنيا ، وهذا من سوء حظه ، فالويل الذى ينتظره فى أخراه لا يوصف »

قالت : « فأبلغت ذلك لأخى حرصاً على صالحه ولكنه غضب ، وحقد علىّ حقداً شديداً ، وتغيرت معاملته لى . إلى أن كان فجر اليوم الذى جئتكم فيه فتمثل لى أبى وأخذ بيدى ، وقال : « تعالى معى » ثم أحسست أننا ننتقل ، وإذا بنا نحلق فى أجواء منعشة ، وأنوار بهيجة ، ونشرف على رياض ناضرة وأنهار صافية ، ومساكن طيبة ، ومشاهد لا تصور جمالها ريشة أى فنان ، ولا تتسامى إليها أحلام أى شاعر ، وثمة رجال ونساء كلهم فى ميعة الصبا ، وعلى أقصى غاية الجمال . قال أبى : « هنا الفردوس ، وإلى هنا يأتى كل من قضى حياته الدنيا عاملاً لإسعاد البشر ، ساعياً بنفسه وبهم إلى التسامى . إنى أقيم هنا يا ابنتى ، وما كنت أحلم أن جهودى المتواضعة تستحق عشر معشار هذا الأجر » قلت : « يا أبى هذا العالم حقيقى محسوس ، وهو موجود فى سماء الوجود ، فما بالنا على الأرض ننظر فلا نراه ؟ » قال : « إنه فى الأثير . إن كل أشياء هذا الكون

حتى المادة التي تحسونها إنما هو موج في الأثير ، ولكنكم لا تحسون إلا سنفاً واحداً من الموج وهو المادة.

ثم أخذ بيدي . وأحسست أننا نهوي في سرعة وإذا بنا على أرض جرداء لا نبت فيها ولا شجر ، مظلمة الأجواء ، فيها أكواخ عاطلة من كل زينة ورجال ونساء عليهم سيما الفقر والقنوط ، قال أبي : « نحن بالقرب من سطح الأرض ، وإلى هنا يأتي الذين لم يهتموا في حياتهم الدنيا بغير نفوسهم ، ولم يعب العالم منهم خيراً ولا شراً . إن حواسهم الروحية ميتة ، وكيانهم الروحي كثيف » قلت : « وهل يظلون هكذا ؟ » قال : « نعم . إلا من بدأ يشعر بما فوت على نفسه من فرص فيمضه الندم وتحرقه الحسرة ، وهذا العذاب يوقظ من حواسه الروحية ، وينقص من كثافته ؛ فيرتفع في بطء وعناء إلى عالم النور »

ثم أخذ بيدي ، وأحسست أننا نهبط ، ولكن في صعوبة وبطء ، فقد كان الجو كثيفاً قاتماً وازداد الجو كثافة وقتاماً ، وصار حاراً كريهاً خانقاً لا يطاق قال أبي : « أنعمي النظر » فإذا بي أرى أشباحاً مروعة ، ليس فيها من الصورة الآدمية إلا أثراً ، وجوه شوهاء وأطراف طويلة وعيون جاحظة وأجسام من ظلام ، فيها المتبعج حتى التكور والأعجف حتى العظام . قال أبي : « هنا الذين اجترحوا السيئات قد رسبوا إلى الحضيض ، وحشدوا معاً ينهش بعضهم بعضاً ، ويسخر بعضهم من بعض ؛ ويوسوس بعضهم إلى بعض وإلى من على شاكلتهم من أهل الدنيا . أكثرهم لا يؤمن بالله ، ويعتقد أن ليس في الوجود إلا هذا الذي هو فيه . أما من أحس منهم بخيبته وبواره ، وأدرك أن في الوجود حالاً أفضل من حاله فيا لطول حسرته وعذابه وبعد الشقة التي تنتظره حتى يصعد إلى أرض النعيم »

وأشار إلى ناحية وقال : « أنظري ! هنا يقبع الذين كانوا يرتشون ، يخونون الأمانة ويفسدون الخلق ، ويعطون الحقوق لغير أربابها ويفوتونها على أصحابها . وأشار إلى أحدهم فرأيته يلطم خده ، ويمزق جلده ويقطع شعره ويبكي بدمع سخين ويندب قائلاً : « ويلي ! ويلي ! والله لو أوتيت ملء الأرض ذهباً لافتديت نفسي به ولو ساعة واحدة مما أنا فيه »

ثم أخذ بيدي وأحسست أننا نصعد ، وإذا بي في حجرتي ، قال أبي : سأتركك الآن على أن تصفي لأخيك ما رأيت . إن كلامك قد لا يفيده ولكن افعلي ...

ثم اختفى وعدت إلى نفسي

قالت الآنسة : فانتظرت حتى عاد أخي في المساء وقصصت عليه ما رأيت . فعبس وبسر ، ومنّ عليّ إعالتي وإطعامي ، وأقسم يميناً غليظة ألا أمسك في منزله بعد ذلك لحظة واحدة . فجمعت ملابسي وخرجت حائرة لا أعرف أين أذهب . وإذا بهاتف يقول : أنظري أمامك ، فنظرت فرأيت هالة من النور ، قال الهاتف : تتبعي هذا النور ، فتبعته حتى صرت أمام هذا المنزل ، وافتقدت النور فوجدته على باب سور الحديقة ، ثم سمعت الهاتف يقول : « ادخلي هنا فهم بحاجة إلى مربية أطفال »

وسكتت الآنسة ثم أطرقت وعيناها تدمعان

مضت الشهور والسنون والآنسة كأنها فرد من أفراد الأسرة وأحبها كافة من بالمنزل ، حتى أن إدريس نفسه بدأ يشعر نحوها بحب واحترام خالصين . ولم يعد يسميها « البلاوي » بل تعلم أن يقول « السيدة عذرية »

عبد المغني علي حسين